2- مرحلة ما بعد البارودي

من تلامذة البارودي الذين لازموه بعد عودته من المنفى الشاعر المصري **أحمد شوقي** [1]، عاش شوقي نصف عمره أيام البارودي، والنصف الثاني بعد وفاة البارودي، لكنه شاعر مكثر، وحسبك أن ديوانه "الشوقيات" يمتد عبر أربعة أجزاء، بل إن له من القصائد الطوال ما تكفي الواحدة أن تخلده، فلا غرابة أننا نجد في بعض شعره توافقا مع شعر البارودي وفي بعض شعره تفاوت مع هذا الأخير، بل إن شعر شوقي ذاته فيه من التنوع والاختلاف، فهو ينظم في الأغراض التقليدية القديمة من مدح، ورثاء، وفخر، وغزل، وحكمة، وأمثال، كما أنه نهج نهْج البارودي في معارضاته للشعر القديم، فهو يعارض البحتري بقصيدته السينية أيام منفاه بالأندلس يحن إلى موطنه مصر، وإلى أيام الصبا قائلا:

اختلاف النهار والليل ينسي أذكرا لي الصبا وأيام أنسي

ويقول البحتري في قصيدته (إيوان كسرى):

صنت نفسي عما يدنس نفسي وترفعت عن جدا كل جبس

وفي قصيدته (صدى الحرب) يقول معارضا المتنبي:

بسيفك يعلو الحق والحق أغلـــب وينصر دين الله أيان تضرب

وما السيف إلا آية الملك في الورى ولا الأمر إلا للذي يتغلـــب

ويقول المتنبي في مدح كافور الإخشيدي والي مصر في قصيدة عنوانها (كل مكان ينبت العز طيب):

أغالب فيك الشوق والشوق أغلب وأعجب من ذا الهجر والوصل أعجب

أما تغلـط الأيـام فـيّ بـأن أرى بغـيضا تُنـائي أو حبيـبا تُقـرب

ومن الشعر الأندلسي قال معارضا ابن زيدون، مستلهما محنة المعتمد بن عباد حاكم إشبيليا، متأسفا لضياع ملكه وذهاب مجده:

---

[1]- (ولد أحمد شوقي في القاهرة عام 1868، اجتمعت فيه العناصر التركية، والعربية، والكردية، واليونانية، درس بالكتاب ثم بمدرسة الحقوق، ودرس بقسم الترجمة ونال الإجازة، عينه الخديوي توفيق بالبلاط، ثم أرسله في 1887 إلى جامعة مونبلييه بفرنسا لدراسة الآداب والحقوق، ثم واصل في باريس، تجول بفرنسا، وزار إنجلترا، حين عاد إلى مصر قربه عباس حلمي ، نفاه الإنجليز إلى إسبانيا سنوات الحرب العالمية الأولى ليعود بعدها إلى وطنه، ليصير شاعر الشعب، توفي عام 1932، من آثاره ديوان "الشوقيات"، كتاب دول العرب وعظماء الإسلام، ورواياته المسرحية (مصرع كليوباترا، مجنون ليلى، علي بك الكبير، عنتره، قمبيز، الست هدى)، وكتاب أسواق الذهب... ينظر إيليا، الحاوي: أحمد شوقي أمير الشعراء، ط3، ج3، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1983، ص5- 8).

يا نائح الطلح أشباه عوادينا نشجى لواديك أم نأسى لوادينـــا؟

ماذا تقص علينا غير أن يدا قصت جناحك جالت في حواشينا؟

وقال ابن زيدون أسفا على القطيعة بينه وبين ولادة بنت الخليفة المستكفي بالله:

أضحى التنائي بديلا من تدانينـــا وناب عن طيب لقيانا تجافينا

ألا! وقد حان صبح البين، صبحنا حَين، فقام بنا للحَين ناعينـــا

وعارض من عيون الشعر قصيدة "البردة" للبوصيري في مدح سيد الأنام محمد (ص)، (أمن تذكر جيران بذي سلم ...) قائلا في "نهج البردة":

ريم على القاع بين البان والعلم أحل سفك دمي في الأشهر الحرم

كما عارض همزية البوصيري المشهورة (كيف ترقى رقيك الأنبياء؟...) في مدح الرسول(ص) بقوله :

ولد الهدى فالكائنات ضياء وفم الزمان تبسم وثناء

ولئن اتهمه بعض النقاد بالسطو على معاني الشعراء القدامى، فإن لشوقي رأيا يمكن أن نعده موقفا نقديا في السرقات الأدبية، إذ يرى أن من طبيعة الشعراء والأدباء أن يتأثر الحاضر بالسابق، ويؤثر في اللاحق، يقول شوقي:

لا تسرق الشعر واتركه لقائلـــه فـإن أقبـح شيء سرقـة النـــــاس

إني وإن صَفرت كفي أخو أدب أُسقى وأَسقي أولي الألباب من كاسي

وإلى جانب الأغراض القديمة، جدد أمير الشعراء في الأغراض والموضوعات الشعرية، كما تحلل من قيود الشعر الجاهلي فهو لا يضطر أن يستهل القصيدة بالغزل، ولا يجعل الفخر منتهى بغيته، كما حاول توحيد أجزاء القصيدة والربط بينها، والتجديد على مستوى الألفاظ، «فلغته تعتمد على بعث القديم من الألفاظ التي نسيها الناس وصاروا لا يحبونها لأنهم لا يعرفونها، ولعل سر ذلك عند شوقي أن البعث وسيلة من وسائل التجديد، بل قد يكون البعث آكد وسائل التجديد نتيجة ما يكون من أرباب اللغة، ممن يفيضون على الألفاظ القديمة روحا تكفل حياتها»، وجمع شوقي بين القديم والحديث على مستوى الصور والأخيلة، ويكفيه شرفا وإبداعا في مضمار التجديد أنه نقل إلى الشعر العربي لونا جديدا وهو الشعر التمثيلي أو المسرحي، وهو باب لم يلجه الشعراء القدامى، كما لم يقتحمه

البارودي قبله، وقد أشرنا إلى بعض عناوين مسرحياته الشعرية، فمن الجديد لديه أنه عاش لمصر كما عاش للأمة العربية وقضاياها القومية ومآسيها، فهو يهتز لما أصاب السوريين حين ضربت دمشق بمدافع الفرنسيين عام 1925 قائلا:

سلام من صبا بردى أرق ودمع لا يكفكف يا دمشـــق
ومعذرة اليراعة والقوافي جلال الرزء عن وصف يدق

كما كتب في زعيم المقاومة الليبية "عمر المختار":

ركزوا رفاتك في الرمال لـــواء يستنهض الوادي صباح مساء
يا ويحهم! نصبوا منـــارا من دم توحي إلي جيل الغد البغضاء
ما ضر لو جعلوا العلاقة في غد بين الشعوب محبة وإخـــاء؟

ولو رحنا نقف على الموضوعات التي نظم فيها شوقي لما اتسع لنا المقام فقد كتب في القضايا الوطنية، والملاحم، وفي وصف المناظر الطبيعية من صنع الله ومن صنع البشر(وادي النيل، الغواصة، أبو الهول، جسر البوسفور)، «ومعظم ما يخلبه من الطبيعة مواقع الجمال ومشاهده ومظاهر العمران والأبنية التي لها أبعاد تاريخية مغمورة بالأسطورة والوهم مفعمة بالذكريات والشعور بنزوح الزمن وحسرة الماضي المتآكل» ، وفي قصص الحيوان والطير على غرار ما في كليلة ودمنة نثرا، وكتب حول رجال الأدب والموسيقى والسياسة، والموسيقى(ابن زيدون، ومحمد عبد المطلب، والمويلحي، والمنفلوطي، وجرجي زيدان، وسلامة حجازي، وحافظ إبراهيم، وخليل مطران، وشكسبير، وفكتور هيجو، وتولستوي، وفردي، ومحمد عبده، ومصطفى كامل، وسعد زغلول).

فإن كان شوقي يشترك مع البارودي في عملية بعث وإحياء الشعر العربي من رقدته ولكن في قالب القصيدة العمودية، فإن شوقيا بنفسه الطويل وكثرة شعره وسعة اطلاعه على الثقافة الغربية يكون قد سار بالشعر العربي وبالقصيدة أشواطا بعيدة على الرغم من الحملة النقدية التي شنها عليه معاصروه ومعارضوه.

ومن شعراء مصر الكبار الذين عاصروا أحمد شوقي **شاعر النيل حافظ إبراهيم** [2]، بل إن مصر والأمة العربية ثكلت بالرجلين معا في عام واحد (1932)، وإذا عاش شوقي حياة الرغد والترف والأرستقراطية في كنف القصور والأمراء، فإن حافظا عانى من البؤس والحاجة، وعاش منذ ولادته في كنف الشعب،«وفتن شاعرنا بما قرأ في كتاب الوسيلة الأدبية من شعر البارودي، فأصبح تلميذه، وسار على نهجه في قوة اللفظ، وجزالة السبك، ومتانة الصنعة، وجودة التأليف على نغم الألفاظ، وجرس الحروف، ودرس في مدرسة الشيخ محمد عبده» ، فلا غرابة أن يتأثر شاعرنا بالرجلين، فقد سخر جل شعره من أجل الإصلاح، وخدمة الأخلاق والدين والوطن والأمة، كما أنه دخل المدرسة الحربية مثل البارودي، وأمل أن يتبوأ مكانته القيادية والسياسية، ولكنه لم يبلغ إلا مكانته الأدبية، «وكان له أسوة حسنة في محمود سامي البارودي[...] فاتخذه حافظ مثله الأعلى يحذو حذوه، ويختط نهجه» ، فحين نتصفح ديوان حافظ نجده ينظم في المدائح، والتهاني، والأهاجي، والإخوانيات، والخمريات، والغزل، والشكوى، والمراثي، وهي جميعا من الأغراض الشعرية التي خاض فيها القدامى، كما أنه حافظ على المعمار القديم للقصيدة، فهو يقول في تهنئة الإمام محمد عبده بمنصب الإفتاء عام 1899:

بلغتــك لم أنسب ولم أتغـــزل ولما أقف بين الهوى والتــذلل
ولما أصف كأسا ولم أبك منـزلا ولم أنتحل فخرا ولم أتنبـــل
فلم يُبق في قلبي مديحك موضعا تجول به ذكرى حبيب ومنزل
رأيتك والأبصار حولك خشع فقلت (أبو حفص) ببرديك أم(علي)

صحيح أن ديوان حافظ لم يرد فيه باب للفخر، كما أن ما نظمه في الغزل والنسيب، وفي الوصف والهجاء لا يعدو الصفحات القليلة والقصائد المعدودة، إلا أنه مكثر في المديح، لكنه ههنا حين يمدح محمد عبده ويهنئه، إنما يمدح في شخصه الإمام العالم المصلح العامل من

---

[2]- (ترجح الكتب ولادة الشاعر في 1871أو 1872في سفينة كانت راسية في النيل، ولعل ذلك سبب تلقيبه بشاعر النيل توفي والده وهو في الرابعة من عمره، فانتقل مع والدته إلى بيت خاله، فدخل بعض المدارس، واطلع على دواوين الشعراء القدامى، مارس المحاماة، ثم دخل المدرسة الحربية، وعمل في السودان، ثم أحيل على الاستيداع من الجيش بسبب التحريض على العصيان، اتصل بالشيخ محمد عبده، كما عمل بدار الكتب الخديوية، توفي عام 1932. من آثاره ديوانه الشعري، ليالي سطيح، تعريب كتاب البؤساء. ينظر حنا، الفاخوري: الجامع في تاريخ الأدب العربي "الأدب الحديث"، ص 136- 143).

أجل إعلاء الدين وإصلاح شأن الأمة، كما قال يهنئه بعودته من سياحته بالجزائر عام 1903:

بكرا صاحبي يوم الإيـــــاب وقفا بي (بعين شمس) قفا بي
إنني والذي يرى ما بنفســـي لمشوق لظل تلك الرحـــاب
يا أمينا على الحقيقة والإفـــ تاء والشرع والهدى والكتاب
أنت نعم الإمام في موطن الرأ ي ونعم الإمام في المحراب

فمطلع القصيدة يحيلنا من خلال صدره إلى مطلع قصيدة الشاعر العباسي بشار بن برد التي يقول فيها:

بكرا صاحبي قبل الهجير إن ذاك النجاح في التبكير

أما عجزه فيحيلنا إلى مطلع معلقة الشاعر الجاهلي امرئ القيس:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

ولا يخفى مظهر مخاطبة الصاحبين بصيغة المثنى وهي ظاهرة منتشرة في الشعر القديم.

وكذلك كتب حافظ في غرض قديم هو الرثاء، إذ قال يرثي محمود سامي البارودي:

ردوا علي بياني بعد (محمـود) إني عييت وأعيا الشعر مجهودي
ما للبلاغة غضبى لا تطاوعني وما لحبل القوافي غير ممـــدود؟

وكأني بالشاعر قد فقد البيان وعجز عن القول بعد وفاة البارودي، فالبلاغة لا تطاوعه، والقوافي لا تنصاع له، فحامد حفني داود يرى بأن حافظا هو تلميذ حقيقي للبارودي ولمدرسة البعث، لأنه رغم تمكنه من اللغة الفرنسية إلا أنه لم يفد من الأدب الأوربي كما أفاد أمير الشعراء أحمد شوقي.

وقد وردت للشاعر من خلال ديوانه مقطوعات قليلة في الغزل، وهو حين يتغزل لا يجعل الغزل منتهى همه ومراده، إنما يجعله مطية لشيء آخر بعده، ولنقرأ له هذه المقطوعة في الغزل:

ظبي الحمى بالله ما ضركا إذا رأينا في الكرى طيفكـــا
ما الذي تخشاه لو أنهـــــم قالوا فلانا قد غدا عبدكـــا ؟
قد حرموا الرق ولكنهـــــم ما حرموا رق الهوى عندكا

وأصبحت مصر مراحا لهم وأنت في الأحشا مراح لكـا
ما كان سهلا أن يروا نيلهـا لو أن في أسيافنا لحظكـــا

إن الغزل لديه يتخذ بعدا وطنيا وسياسيا، فهو يعرض بالإنجليز من خلال الغزل، وهو يناهض الرق، ويرفض الاستعمار الذي حرم الرق على نفسه، ولكنه أباحه في الشعوب المستعمرة حين لم يجد فيها القوة والغلبة، وفي هذا الشأن يقول أحمد أمين عن حافظ وعن شعره وموقفه من القديم والجديد في مقدمته لديوانه:«إنه بعد ثورته على الشعر القديم نظم في موضوعاته، ولكنه حتى في هذه لا ينسى مقامه، ولا يجهل رسالته، ولا يفوته غرضه، فهو ينتهز فرصة تحية العام الجديد، وتحية المليك، ورثاء الفقيد، وتهاني العيد، ليبث في ذلك عاطفته الوطنية، ونظراته الأخلاقية، ويبشر وينذر، ويرغب ويرهب، فهو مجدد من هذه الناحية في موضوعاته الجديدة وموضوعاته القديمة».

نعم إن مهمة الشاعر الإحيائي لا تنحصر في التقليد، ولا تقف عند حدود اجترار القديم في موضوعاته وأساليبه، لكنه يصنع من مادة القديم شيئا جديدا ويضيف إليه من نفسه ومن واقعه وعصره، وكذلك لم ينحصر شعر حافظ في الأغراض الشعرية القديمة، بل وجدناه يخوض أيضا في شعر الوصف، والشعر الاجتماعي، والشعر السياسي.